

خمس ساعات فوق السحاب

وهنا تتجلى قدرة الخالق العظيم ويتملكك شعور جديد وتوقن عندئذ أنها الراكب الكريم أنك مخلوق ضئيل جداً بين هذه المخلوقات العظيمة وإنك قطرة في بحر لجى وذرة في الفضاء ثم يتدرج بك هذا الشعور إلى معنى جديد وهو أن هذه المخلوقات العظيمة سخرها الله لك فأنت على ضآلتك جسماً سيد هذه المخلوقات طالما وضعت نفسك حيث أرادك الله ، وأنت دونها شأناً إذا أنت استخدمت مواهبك في غير ما خلقت له .

ولا يقطع هذا الخيال البديع الذى تسمج فيه في معان للحياة جديدة وأنت في السماء أو لا يقطع هذا الحلم اللذيذ الذى تسمو فيه إلى شعور لا يدركه أهل الأرض من إخوانك البشر لا يقطع هذا الخيال ولا ذلك الحلم إلا إلا صوت جميل من آنسة الطائرة أو مضيفتها (Hostess) والتي خصصت لخدمة الركاب تسألك أو تهجيك بين الفينة والفينة عن كل ما تطلب في وداعة الأثني وحياتها وفي أدب جم ودقة في العمل وقيام بالواجب .

وكم أعجبنى تسميتها (بالمضيفة) لأن هذه الشركة تود أن تشعر ركاب طائراتها بأنهم ضيوف عندها وأن هذه الطائرة ماهى إلا بيت من بيوتهم توفر فيه كل ما يتوفر في مسكن الإنسان من راحة وهدوء وإن هذه الآنسة ماهى إلا زينة الدار أو مضيفتهم تدخل الإيناس في نفوس الركاب باستجابة رغباتهم بسرعة ودقة تسميها ابتسامة جميلة . فهذا طعام الإفطار من كل لون مأكلاً ومشرباً تتقدم به المضيفة بالمجان في ساعة معينة لكل راكب في صينية عجيبة وهذا راكب يطلب دواء وهذا آخر يطلب منها أن تعطيه بيانات خاصة عن المكان الذى تملوه الطائرة إلى غير ذلك من وسائل الراحة التى يحتاج إليها المسافر في الطائرة .

هاهى الطائرة تعبر الصحراء الشرقية في نصف ساعة يظهر خليج السويس وتظهر القناة خطاً صغيراً جداً كما يرسم التلاميذ على الورق . وفي نصف ساعة أخرى تعبر الطائرة صحراء سيناء فتظهر جبال سيناء العالية من بين السحب الكشيفة ثم نحن الآن فوق خليج العقبة وتبدأ الطائرة بعد ذلك تحلق وتسير فوق صحراء العرب مخترقة

تختلف قيم الحياة عند الناس ، وتنوع تبعاً لذلك طرق استمتاعهم بها ، فهذا يجد لذة الحياة في أن تكون على وتيرة واحدة فان تبدلت يوماً استنكر ذلك واستاء ، وذلك يجد متع الحياة في التنقل ويأبى إلا أن يكون للحياة عنده بين الحين والحين صورة جديدة تبهج النظر وتشفي الصدور وتثير العقول وهو هذه الصورة الجديدة للحياة يأبى إلا أن تكون باسمة لا كدر فيها ولا شائبة .

وهذه الرحلة التى أحدث القراء الكرام عنها أستطيع أن أقول إننى ذلك الشخص الذى جمع بين النظرتين للحياة فذاق حلوها ومرها أو كاد ، فان خدمتى للتعليم في منطقة (بلاد النوبة) زهاء أحد عشر عاماً على وتيرة واحدة ثم سافرت لأمانة (الكويت) على متن الرياح لتبديل مفاجيء للحياة أحدث في نفسى لذة غريبة جعلتني أبدأ الحياة بعمر جديد وأن أبدأها مرة أخرى من أول الدرج . وهاهى السيارات الانيقة التابعة لشركة الخطوط الجوية العالمية للنقل T.W.A تنقل أعضاء البعثة المصرية للتعليم بامارة الكويت متجهة نحو ميناء فاروق الجوى في الصباح الباكر ، وها نحن بعد إجراءات جمركية وصحية أمام إحدى طائرات الشركة التى تتأهب لاستقبال ضيوفها من كل جنس ولون وهاهى حركة موظفي الطائرة تؤذن أنها بعد دقائق قليلة سوف تحلق في الجو متجهة نحو (البصرة) إحدى مدن العراق .

وإنك الآن في داخل الطائرة في ردهة أنيقة حوت أربعين راكباً يجلسون على مقاعد وثيرة كذلك التى توجد في أعرق القصور وتلك نوافذ صغيرة على جانبي الردهة يستطيع الركاب على الجانبين أن ينفذوا بأبصارهم إلى خارج الطائرة ليستمتعوا بآيات الله وآلائه ، فالجبال الراسيات، تراها على ارتفاع تسعة آلاف قدم . كأنها أحجار صغيرة متناثرة والمدن بما فيها من منازل وطرق كأنها لعب الأطفال أو كأنها خريطة في كتاب صغير . فإذا ارتفعت بك الطائرة فوق السحاب الذى يعلو الجبال فأنت بين قطن مندوف متناثر أو أنت بين زبد البحر المتناثر إلى ما لا نهاية .

هذه الصحراء إلى الجنوب الشرقى ومتجهة صوب البصرة .
ولست أدري ما الذى جعلنى أسبح بخيالى إلى غور بعيد
فأجد خط الشلال (حلقا) مائلا أمامى وأنا بالطائرة —
إنه تداعى المعانى يتحكم فىنا وإنه هو الذى ربط بين هذا
الخط الجوى السريع والذى يتناسب مع سرعة العصر
الذى نعيش فيه وبين خط (الشلال حلقا) الذى رأى إلا
أن يجعل أهل هذه المنطقة يعيشون فى (الماضى) السحيق
مع أنهم فى القرن العشرين . وكيف لا يذكر الإنسان
طريقاً ذرعها جيئة ودهابا أحد عشر عاما بين القاهرة
وعنبة ولا بد أن يقضى فى كل مرة فى السفر ثلاثة أيام
بلياها بينما قطعنا فى هذا الصباح الصحراء الشرقية ثم شبه
جزيرة سيناء فى ساعة واحدة ووصلنا العراق بعد خمس ساعات
فقط . فلهذا العلم الذى جعلنا نظير فى الجو فتبلغ
أهدافنا فى ساعات وبالقسوة الظروف على سكان (بلاد
النوبة) الذين يعيشون فى الماضى بتلك البواخر البطيئة
التي تحاكي السلحفاة فى سيرها .

وهل تريدنى أيها القارىء الكريم أن أهبط بك على
أرض (البصرة) قبل أن أحدثك عن طعام الإفطار
فى الطائرة !!

فهاهى (المضيفة) الرشيدة تستأذنى وتستأذن كل
راكب (طبعاً) فى أن تضع يديها وسادة صغيرة على
فخذى !! وصبراً فلا تأخذك الدهشة فانها إذ تضع الوسادة
تعد مائدة سوف تحمل إليها حالا (صينية) من مادة
البلاستيك قد أبدع الصانع فى صنعها فخر فيها ما تستطيع
ثلاثة عشر قطعة صغيرة من الألوان أن تستقر فيها بسهولة
ويسر . وأود أن أعفك أيها القارىء الكريم عن معرفة
ما حوت هذه (الصينية) من أكل وشرب حتى لأحرم
أعصابك من هدوئها وراحته ولكنك يجب أن تعلم إجمالاً
أن ما قدم فى الإفطار أمشاج مما خلق الله من الفيتامينات
المختلفة . والتهمتها جميعاً بدون وعى لأننى ما كنت آكل
بعقل الذى شغلته دقة (الصينية) ودقة ذوق رجال الشركة
واستطاعت بطنى أن تغافل عقلى المنشغل فازدردت كل
ما حوت (الصينية) إلا من الألوان نفسها . . .

وأما زميلى الذى كان يجاورنى فى الجلسة (الأستاذ يحيى
أبو حمده) عضو البعثة وأستاذ الرسم بها فقد بهرته منظر

(الصينية) الدقيقة فأخذ يعمل بقلبه على الورق يسجل فيه
دقة ذوقها وكان ذلك بعد أن اتهم ماعلى (الصينية) من
أكل وشرب بدقة فائقة لا تقل عن دقته فى رسم (الصينية)
وما أظنه أكل ما أكل لمجرد الأكل مثلى وإنما ليستطيع
أن يرسم (الصينية) على الطبيعة مجردة من كل ما يحفى
إبداعها وزينتها .

ونعود مرة أخرى إلى (المضيفة) أو هى التي تعود
إلينا فطلبنا منا أن نربط أنفسنا بالأحزمة الملائمة المقاعد
استعداداً لهبوط الطائرة على أرض (البصرة) فنفذنا
أمرها طائعين لأننا نرجو السلامة . وهاهى الطائرة تهبط
بالتدرج من علو تسعة آلاف قدم وكلما هبطت الطائرة
هبطنا معها بقلوبنا وشعرنا فى كل مرة بدوران بسيط هو
كل ما فى ركوب متن الرياح من صعوبة إن صح هذا
التعبير .

وهانحن نشعر بمجلاّب الطائرة تحتك بأرض المطار
وتسير عليها مسافة طويلة وهانحن نعود إلى الأرض مرة
أخرى لنسحب عليها بين إخواننا أهل الأرض تاركين
السما بصفاتها وأحلامها وتاركين أيضاً تلك الروح التي
سمت بأفكارنا فجعلتنا مع الله فى سمائه وبين آياته وآلائه ،
نعم تاركين كل ذلك لتربط مرة أخرى بالأرض التي
هجرناها خمس ساعات ولنعود أيضاً إلى أفكارنا المادية
التي هى من وحى الأرض بل هدف كل من يعيش عليها
فى هذا الزمن المادى البحث .

ووداعاً سفينة الهواء وأنت تتجهين صوب (الهند)
حتى نكون فى جوفك مرة أخرى بمشيئة الله بعد تسعة
أشهر نجما فيه خمس ساعات أخرى فى السماء لتتطهر من
رجز الأرض ونعود إلى الصفاء ولو لمدة قصيرة .

صالح جمال محمد

ناظر المدرسة المباركية الثانوية بالكويت

اطبعوا مطبوعاتكم فى

مطبعة دار التاليف

٨ شارع يقو بنجر